مجلة الرائد

العدد : ٢٤٢ الموافق في ربيع الأول ١٤٢٤ هجري ٢٠٠٣/٤ ميلادي

عنوان المقال :خاطرة من الذاكرة	الكاتب :أم عدنان

قبل سنوات طويلة وحين كنت على مقعد المدرسة الإعدادية قرأت قصة قصيرة مترجمة - اعتبرتها أسطورة - كانت الطالبات يتداولنها فيما بينهن .. وكنت قد نسيتها ، ولكن أحداثاً أعادتها إلى ذاكرتي ..

دخل طاغية قرية وادعة ، يعيش أهلها بأمن واطمئنان رغم شظف العيش وضيق الحال . أراد الطاغية ومنذ اللحظة الأولى التي دخل فيها القرية أن يسيطر على أهلها ويخضعهم لولائه ، ولكن هاله ما رأى من تلاحم الناس - رغم بساطتهم - ونفورهم من كل غريب يتدخل في مقدراتهم .. وبعد استخباره عن أدق أمور حياتهم علم أن رجلاً من أهل القرية وهو بائع لمواد غذائية بسيط قد يكمن فيه سر قوتهم لاعتبارات كثيرة في شخصيته ومعاملته ..

قرر الطاغية إبعاد البائع عن طريقه بأية وسيلة ، ولكن كيف ؟

هل يرسل إليه من يقتله ؟

هل يعمد إلى تلفيق تهمة له .. ؟

هل .. هل .. ؟

وبعد التفكير والتدبير وجد أن كل أفكاره تلك غير مجدية .

فإذا به يجمع أهل القرية بحجة إبداء شكره على استضافتهم له ، وبعدئذٍ قال لهم صراحة أنه على استعداد أن يحضر لهم كل ما يحتاجونه ويدفع كل ديونهم ويحقق لهم كل ما يحلمون به بشرط أن يسمحوا لرجاله بقتل بائعهم لأنه غير جدير بهم ، وبضاعته غير مناسبة لهم!!

هبَّ أهل القرية جميعهم متوعدين الطاغية وأعوانه وملوحين لهم بعصيهم وفؤوسهم .. كيف يقبلون بقتل بائعهم وهو من يمنحهم الأمل والحب ولا يثقل عليهم بتعجيل الدفع بل كثيراً ما يؤجل لهم إلى وقت غير محدد ، غير عابئ بما يعود عليه من خسارة ..؟

وتحت وطأة هدير أصواتهم وثورة غضبهم هدأهم الطاغية ، وطلب منهم أن ينسوا ما قال لهم ، ثم كرر امتنانه لهم ..

مرت الأيام واستمر حال القرية على ما هو عليه من شدة ، وبائعهم يبذل ما يستطيع لتأمين ما يسد رمقهم . وفي هذه الأثناء بدأ أولاد الطاغية وحاشيته يطوفون في شوارع القرية بحللهم الأخَّاذة

ومأكولاتهم التي تعيد ماء الحياة إلى الوجوه ومركوباتهم الفارهة ، دون أن ينسوا نثر هداياهم الباهرة على أهل القرية ببشاشة وكرم!!

بعد فترة تنبه البائع إلى أن الناس قد كثرت مشترياتهم بشكل كبير دون أن يكترثوا إلى الديون التي تتراكم عليهم ، بعد أن كان واحدهم يأبى الاستدانة إلا للضرورة الملحَّة ، معترفاً بأنه يثقل على البائع الطيب . ورغم لفت البائع انتباههم لخطئهم الذي إذا استمر فإنه يؤدي إلى عدم مقدرته على متابعة تأمين حاجاتهم وقُوتهم ، إلا أنهم كانوا يردون عليه ببرود تحول بعدها إلى نظرات ازدراء وتعالٍ

وساء الحال إلى أن تجرأ عليه سفهاء القرية بشتمه ورجمه بحجة أن بضاعته رديئة ، وأنها نفس البضاعة التي كان جده البائع الأول يجلبها للناس منذ عشرات السنين ، وأنه سبب تأخرهم عن ركوب موجة التطور والحضارة!

وجاء يوم أسود ، وكان أشد منه اسوداداً وحلكة ، قلوب جميع أهل القرية الذين أحاطوا بالبائع المسكين بخناجرهم وعصيهم ، وأخذت الحلقة حوله تضيق وتضيق إلى أن كانت نهاية البائع ، والطاغية يراقب هذا المنظر من شرفته محتسياً قهوته ، وابتسامة أفرجت عن أنياب صفراء لامعة بلمعان مُدى وسكاكين أهل القرية ..

هذه هي خلاصة القصة ، والتي كانت على ما أذكر مؤلفة من حوالي (٣٠) صفحة متوسطة ، وحينذاك لم تعجبني بل أثارت اشمئزازي ، وقد أدركت للمرة الأولى في حياتي أنه يمكن للمرء أن يشكو من معدته ويصيبه الغثيان من مجرد خبر أو قصة ، بل سفهت صاحبتها التي أتعبت نفسها بجلبها إلى المدرسة وإقرائها لزميلاتها ، وللقصة هذه النهاية المأساوية ، فقد تعودت أنا وجيلي على النهايات السعيدة في القصص والأفلام وحكايا الجدة . لذلك رأيتها خيالية وأن وقوعها بعيد الاحتمال ، وإن وقعت حتماً فستكون في أرض ليست أرضي وليس بين القوم الذين أنتمي إليهم وهم العرب ، فقد اشتهر العرب بالمروءة والشهامة وإغاثة الملهوف ، فهم أصحاب شعار : " انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً " ، وهم أصحاب الانتصارات العظيمة ، وهم وهم .. (كما أتخمتنا جميع وسائل الإعلام) ، وأنا أيضاً من المسلمين الذين أصروا أن يكونوا متحابين متعاضدين متكاتفين ، ضد أي طامع وغازٍ أجنبي ، وأنهم لا يتنازلون - مهما كانت الضغوط عليهم - عن مبادئهم وعقيدتهم ، والدليل على ذلك صمود بلال وصهيب ، وإصرار

مجلة المرابط

العدد : ٢٤٢ الموافق في ربيع الأول ١٤٢٤ هجري ٢٠٠٣/٤ ميلادي

عنوان المقال :خاطرة من الذاكرة	الكاتب :أم عدنان

وثبات أبي بكر رضي اللّه عنهم .. ولا يمكن للعرب أن يفرطوا بفرد منهم صغيراً كان أو عظيماً ، أو أن يبدر من أحد منهم أي غدر ، فما بالنا نرى أن أهل القرية بأكملها في قصتنا كانوا غادرين وأوغاداً ؟! إلى آخر ما جاء من أفكار ومحاكمات كانت تموج في فكري . ومنذ ذلك اليوم الذي قرأت فيه القصة أهملت ذكرها تماماً ولم أحدث بها أحداً من أهلي ومعارفي ، بل تناسيتها تماماً دون أن أدري أن الأيام ستدور ويحدث في عصرنا هذا ما يشابهها (مع الفوارق) وأين ؟ في بلاد المسلمين ، بلادنا الحبيبة . فقد أطلقت أمريكا ، والتي تدعي الألوهية وتنادي في العالم بمنطق فرعون : { **أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى** } و : { **مَا أُرِيكُمْ إِلا مَا أَرَى** } .. أطلقت قرارها بتدمير العراق الحبيب ، عراق سعد بن أبي وقاص وعراق الرشيد ، فقامت جميع الدول الإسلامية ومعظم دول العالم ضد هذا القرار ، وأعلنت الدول العربية أنها ترفض ضرب العراق ، وأنها لن تقدم أية معونة على ذلك على أي صعيد .

وبعد ذلك بدأت بعض دول العالم تتساقط الواحدة تلو الأخرى ، وبدأ التنازل (اضطراراً!!) من دول صديقة وشقيقة ، مثل أنها لا تمانع مرور طيران العدو بسمائها في حال الضرب .. ثم تطور موقفها أكثر فهي لا تمانع من استخدام مطاراتها . ودول أخرى سوف تسمح باستخدام أراضيها لشن الهجوم البري واستخدام الصواريخ البعيدة المدى ..! ثم بعد ذلك ستقدم للعدو ما يحتاجه من قطعات عسكرية من مشاة ومقاتلين وطيارين و .. بما يعني المشاركة الفعلية للعدو من دول مسلمة ضد دولة مسلمة ، ولم يعدموا التبرير ، فبينهم وبين أمريكا المعاهدات والمواثيق التي تجبرهم على تقديم التعاون المادي وما سمي بالدعم اللوجيستي .. وحجة بعضهم أنهم قاسوا من نظام العراق ما قاسوه ، إذاً فعليهم إسقاطه ، وقد تناسوا بل تجاهلوا أن العراق ليس النظام الظالم فقط الذي سيسقط يوماً ما .. بل هو شعب بأكمله أطفالاً وشيوخاً ورجالاً ونساءً أُثخن جراحاً من القريب والبعيد ، وعوقب على ذنب لم يقترفه ، وحُمِّل تبعات غيره وإشكالات كان من الأولى بحثها وحلها بين الإخوة والأشقاء منذ البداية ..

الذي يخطر في بالي الآن : هل سيستمر التنازل أكثر فأكثر ؟ وإلى أي مدى ؟ وهل سيصل إلى أن تمسك الدول الشقيقة بزمام المبادرة لتدمير العراق شقيقتها ابتغاء مرضاة أمريكا وتقرباً لها ؟

عند ذلك على هذه الدول ألا تفاجأ إذا وجدت أن الدائرة تدور عليها واحدة فواحدة ، وهذه قراءة القاصي والداني ، والعالم والجاهل ، وعندها لن يتاح لها حتى أن تقول : « **أكلت يوم أكل الثور الأبيض** » .